مجلّة
اللّغة العربيّة وآدابها
رقم الإيداع القانوني: 2013-8004 ISSN: ر.د.م.د: 2352-9830

ألفاظ الحرب في شعر الشنفرى

words in the poetry of Chanfara War

د/ حمزة العيفاوي

جامعة البليدة 2

Laifaoui.hamza@gmail.com

تاريخ الإرسال : 2017 /08/11 **تاريخ القبول: 2018/10/22**

مُلخّص البحث

كان من نتائج خروج الشنفرى عن حمى القبيلة إعلانه العداء والحرب على بني قومه، وتوعده بأخذ الثأر ممن كانوا سببا في انتحائه لسبيل التصعلك، فجاء شعره مليئا بالألفاظ الدالة على الحرب ومتعلقاتها، وهو ما تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء عليه.

الكلمات المفتاحية: الحرب، الشنفرى، الصعاليك، السيف، القوس.

Abstract

The departure of Chanfara from his tribe was a declaration of enmity and war on his own people. Threatening to retaliate and take vengeance from those who were the cause of taking vagabonds path, so his poetry was full of war and vengeance vocabulary which this study aims to shed light on.

***Key words**: War, Chanfara, vagabonds, sword, bow*

*** *** ***

مقدمة

كانت حياة العرب في الجاهلية مزيجًا بين السلم والحرب؛ ففي أوقات السلم تشيع أنواع مختلفة من المسرات كالموسيقى والغناء وإنشاد الشعر وقص الحكايات عن البطولة والأبطال، بينما كانت في الحرب عرضة للمشاحنات والمنازعات، ومحفوفة بالمصاعب والأخطار. وقد هيأت البيئة الجاهلية للعرب في ذلك الوقت ظروفًا جعلتهم يتنازعون ويتشاحنون ويتحاربون، فكان البقاء للأقوى، أما الضعيف أو الجبان فمقهور ومهان، فكانت الحرب سبيلا لإبراز قوتهم ودافعا قويا للحفاظ على حياتهم وتخليد مآثرهم وسببا في شيوع ذكرهم على الدوام.

ومن الذين خصصوا حياتهم للحرب والقتال فئة تسمى بالصعاليك، وهم «أفراد كانوا في منتهى الفقر، ويمتازون بالقوة الجسمية وسرعة العدو مع الشجاعة والأنفة، وكانوا أشبه بقطاع الطرق، يعيشون على السلب والنهب والإغارة على أموال الأغنياء، فكانت القبائل معرضة لهجماتهم»[1] ومن أشهر الصعاليك الذين ذاع صيتهم وشاع ذكرهم، الشنفرى الذي عاش حياة صعبة وقاسية قبل تصعلكه وبعدها، فكان الانتقام من قومه غايته، والحرب وسيلته، فلم يهدأ له بال ولم يقر له قرار، ففعل بقومه مالم يكن أحد يتوقعه، ولم يكف عن طلب الثأر إلى آخر أيام حياته.

وفي سبيل مقاربة هذا الموضوع حاولنا استقراء ديوان الشنفرى واستخراج ألفاظ الحرب ومسميات السلاح الذي توسل به الشنفرى لبلوغ غايته، كما حاولنا تحليل مضامين تلك الألفاظ وتلمس المعاني وظلالها من خلال السياق الذي وردت فيه. ونحن إذ نحاول البحث في هذا الموضوع سنسعى للإجابة عن إشكال رئيس هو ما القاموس اللغوي لألفاظ الحرب التي استعملها الشنفرى؟ وما هي دلالتها؟

سيرة الشنفرى

إنّ الحديث عن سيرة الشنفرى لا تختصره الصفحات، لتعدد الأقوال والروايات فيه، إلاّ إننا يمكننا القول إنه عاش حياة صعبة قاسية، واتخذ من الحرب نهج حياة، يثأر لذاته وينتقم من قومه، ويواجه بها شبح المجاعة وقساوة الحياة، ويرى عبد الحليم حنفي أنّ «الظروف الشخصية التي أحاطت بالشنفرى من أسره وشعوره بالهوان بين أناس لا تربطه بهم رابطة، ولا يرى لهم عليه حقا بل ولا يراهم خيراً منه شخصاً أو نسباً، كل ذلك كان سببا قوياً وأصيلا في اتجاه الشنفرى إلى الصعلكة»[2]

ويلخص التبريزي رأي العرب في عقلية الشنفرى فيقول «يضرب به المثل في "الحذق والدهاء" فلننظر إلى ما كان يعانيه في صعلكته وتنقله الدائم، من صور عجيبة غاية العجب، قاسية أشد القسوة، في احتمال الجهد والجوع والبرد والحر والمخاطر، وقدرته الأشد عجبا على تصوير هذا كله»[3] في صورة حية ناطقة تجعلنا نتعايش مع مواقف الشاعر وأحداثه فنشعر بما يشعر وننفعل لانفعاله؛ ففي حديثه عن الجوع مثلاً يتصور القارئ حالة الجوع وآثارها المترتبة عليه، يقول:[4]

وأغدو خميص البطن لا يستفزُّني *** إلى الزَّادِ حِرْصٌ أو فؤادٌ موكَّلُ

ففي هذا البيت يُصوِّر لنا الشاعر خلو بطنه من الطعام إلى درجة ضموره، ومع هذا فإنّه لا يثيره الحرص على تحصيله أو الشره إليه، على الرغم من حاجته الماسة إلى طعام يسد به أوده، والسبب في هذه العفة هو إقراره بأن سبب تصعلكه لم يكن بهدف الحصول على لذيذ الطعام أو فاخر الثياب، إنما كان لهدف أجل وأسمى تمثل في الانتقام ممن تسببوا في عيشه لحياة العبودية.

وفي حديثه عن البرد يتصور القارئ حال الشاعر وهو يرتعش من شدة البرد، وهذا جانب من جوانب المعاناة التي يمر بها، يقول:[5]

ولَيلةِ نَحْسٍ يَصطَلِي القَوْسَ رَبُّها *** وأقطعه اللاتي بها يتنبّلُ

دعسْتُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ وصُحْبَتِي *** سُعَارٌ وإرْزِيزٌ ووَجْرٌ وأَفْكَلُ

يُصوّر لنا الشاعر ليلة شديدة البرودة، يغامر فيها بقطع نباله وإشعالها ليتدفأ بها من برد هذه الليلة التي سرى في ظلامها الدامس والمطر الخفيف يتساقط، مصطحباً معه جوعه الشديد، والبرودة القاسية، والخوف من المجهول، وكان نتيجة هذا أن أصبح يرتعد ويرتعش من شدة البرد. ومن العجيب أنّ الشاعر يرسم بمعجمه اللغوي المتميز مشاهد تجعل المتلقي وكأنه يشاهد صورة مرئية أمامه.

ولنتأمل قوله الذي يشير فيه إلى شدة الحرارة: [6]

ويومٍ من الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ *** أفاعيهِ في رَمْضَائه تتَمَلْمَلُ

يتحدّث الشاعر عن يومٍ شديد الحرارة، تتحرك فيه الأفاعي وتظطرب من شدة الحرارة، والشاعر لم يكتف بالوصف فقط بل جعل المتلقي وكأنّه يشاهد المشهد بعينيه، ويتخيل نفسه في هذا الموقف ويتأثر به، فمن برودة قارسة إلى حرارة شديدة، إلى تنقله بين الجبال والوديان، ومصاحبة الوحوش كانت هذه حياة الشنفرى في تصعلكه.

وننتهي من هذا الحديث بالقول أنّ «تمرد الشنفرى إنما يعدُّ رفضا للظلم، وإحقاقاً للحق، وهياماً بالعدالة الاجتماعية الغائبة»[7] كما أنّ نظرة المجتمع، وظروف الأسر وما لاقاه من صعوبة في الحياة هي التي دفعت به إلى أن يسلك سبيل التصعلك على أمل التحرر من الظلم الاجتماعي الذي مورس بحقه. وسعياً منه لفرض هيبة لنفسه طالما حُرم منها لمّا كان في قومه تحت ستار العبودية الجائر، فلجأ إلى إعلان التمرد والحرب على

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

القبيلة، وتخصيص حياته للثأر وبث الرعب والهلع في أفراد قومه، كجزاء لما لقاه منه.

الحرب في شعر الشنفرى

يُعدُّ ميدان الحرب من أكثر الميادين التي تحدّث عنها الشعراء الجاهليون «وسعته تبرز من عمق الحياة الاجتماعية التي كان يحياها العرب، وحياتهم كانت في عمادها تقوم على الحل والترحال، والصيد والغزو، وكانت علاقاتهم توصف بالقبائلية تزدهر بها الغارات والمناورات، لذلك كثرت ألفاظ الحرب ومتعلّقاتها من خيل وسلاح وجيش وكتائب وضرب وإراقة دماء»[8]

والحرب هي ذلك الأتون الذي نضجت فيه ملامح القصيدة الجاهلية ووصف «الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمُدَام»[9] وقد ركّز الشعراء القدامى على وصفها والتغني بها، لأنها كانت مصدر عز وشرف بالنسبة إليهم، ومن هؤلاء الذين أكثروا من توظيف ألفاظ الحرب في شعرهم الشنفرى، الذي جاء شعره انعكاسا لحياته، ومن ذلك قوله: [10]

ثَلاثاً على الأقدامِ حتّى سما بنا *** **على العَوْصِ شَعْشَاعٌ من القوْمِ مِحْرَبُ**

فكلمة مِحرب تدل على صاحب الحرب أو الشخص الذي يخوض الحرب بكل شجاعة وشدة، والشاعر يتحدّث عن مسيرته هو ورفاقه لمدة ثلاثة أيام مشياً على الأقدام إلى أن وصلوا إلى الحيّ المُسَمَّى العَوْصِ فوجدوا نفرًا من القوم متأهبين لقتالهم، ورغم أنهم قلة يواجهون كثرة إلا أنّ هذا لم يمنعهم من المواجهة والقتال، لأنهم تعوّدوا على الحرب فأصبحوا على أهبة الاستعداد دائما.

وفي قوله: [11]

وقدْ خرَّ منهُم رَاجِلانِ وفارِسٌ *** **كَمِيٌّ** صَرَعْنَاهُ وقَرْمٌ مُسَلَّبُ

حمل هذا البيت دلالات الحرب؛ إذ حملت كلمة خرّ دلالة السقوط على الأرض موتاً، ودلت الكلمتان راجلان وفارس على حيثيات المعركة التي سقط فيها هؤلاء، كما دلّت كلمة كميّ على الشجاع الذي يلبس سلاح الحرب تأهُباً لخوض المعركة. وفي هذا اللقاء الذي داربين الصعاليك من جهة ورصَد يترقبونهم لقتالهم كانت الغلبة لجماعة الصعاليك الذين قتلوا القوي والشجاع منهم وهذا هو دأبهم، فالخوف لا يعرف سبيلا إليهم، فإما

النصر أو الموت بشرف وهذا غاية ما يرجونه، فلئن يموت الواحد منهم في معركة أحب إليه من الموت طريح الفراش.

وفي قوله: (12)

وبَاضِعَةٍ حُمْرُ القِسيِّ بعَثْتُها *** ومنْ **يَغْزُ يَغْنَمْ** مَرَّةً ويُشَمَّتُ

جاء في هذا البيت عدة ألفاظ مرتبطة بالحرب: باضعة وهي قِطْعَة الخَيْلِ التي تُعدُّ للغزو، كما تحدّث الشاعر عن عُدته في الحرب وهي القوس، ليشير إلى دالتي الغزو والغنيمة وهما مفردتان مرتبطتان بالحرب، وفي قوله: من يغز يغنم مرة ويشمت، دلالة على تعوده على خوض الحروب ومعرفة قانونها الذي يوجب منتصرا ومنهزما، فهو على دراية بأن الحرب سجال يوم لك ويوم عليك، وهذا ما جعله لا يدخر جهدا في حربه ضد قومه، فكان شعاره إما الانتصار أو الموت بشرف بين طعن القنا وارتطام السيوف.

وفي قوله: (13)

فإنْ **تُقْبِلُوا** تُقْبِلْ بِمَنْ نِيلَ مِنْهُمْ *** وإنْ **تُدْبِرُوا** فأمُّ من نِيلَ فُتَّتِ

أشار الشاعر في هذا البيت إلى أحد أكثر الخصائص أهمية في الحرب وهي الإقبال حين يكون النصر ممكنا ومتحققا والإدبار لمّا تكون بوادر الهزيمة لائحة في الأفق، وهذا ما يدلُّ على أنّه يُجيد التعامل مع معطيات المواجهة بينه وبين أعدائه، فكان حريصا على تخير الزمان والمكان المناسبين للإيقاع بضحاياه، والعودة سالما إلى أماكن وجوده، حتى يعيد الكرة مرات ومرات.

وفي قوله: (14)

ومُسْتَبْسِلٍ ضافي القميص ضمَمْتُهُ *** **بِأزْرَقَ** لا نِكْسٍ ولا مُتَعَوِّجِ

في هذا البيت تحدّث الشاعر عن المستبسل الذي يُقْبِلُ على الحرب مستقتلاً ومُسْتميتاً في الدِّفَاع والذودِ عن نفسه وحياته، وعلى الرغم من قوته وشدته إلا أنه استطاع أن يرديه قتيلا بسهم من سهامه، وهنا تكمن قوة الشنفرى التي استمدها من شجاعته وإقدامه، فنراه يتخير من أعدائه القوي الشجاع، حتى لا يُعيَّر بأنه يجنح لقتل الضعفاء ولا طاقة له بمواجهة أو قتل الأشداء.

وفي قوله: (15)

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

إذا انْفَلَتَتْ مِنِّي جَوَادٌ كريمَةٌ *** وَثَبْتُ فَلَمْ أُخْطِئْ عِنَانَ جَوَادِي

أشار الشاعر إلى أحد عدّة المقاتل في الحرب آنذاك وهي الخيل، وبالرغم من أنّه لم يكن له جواد يمتطيه أو يغير عليه، إلاّ أنّ هذا لا يَعْنِي أنّه لا يُحسن رُكوبَه وخوض المعارك عليه، فهو وإن انفلت منه تكفيه قفزة منه ليُمْسِك عنانه، وقد عرف بشدة عدوه حتى قيل: "أعدى من الشنفرى" فلا الخيل ولا راكبها يستطيعان اللحاق به، وكانت هذه أبرز نقاط قوته، فكان يغير ويقتل ويفر إلى مكان لا يستطيع أحد الوصول إليه.

ومخطئ من اعتقد بأن الفرار دليل ضعف، بل على العكس تماما فالحرب كر وفر، والفارس الشجاع لا يلقي بنفسه إلى التهلكة، فهو يقبل ويدبر، ويتحين اللحظة المناسبة للهجوم، من أجل تحقيق بغيته وإطالة عمر الحرب لأكبر فترة ممكنة.

وفي قوله: (16)

فإنْ **تَطْعَنُوا** الشَّيْخَ الذي لمْ *** منيَّتَهُ وغِبْتُ إذْ لمْ أُشَهَّدِ

فطعنَة خَلْسٍ مِنْكُمْ قَدْ تركْتُها *** تَمُجُّ على أَقْطَارِهاَ سُمَّ أَسْوَدِ

جاء هذان البيتان متضمنان معنى الحرب، إذ إنّ الطِعَان والموت أكثر ما يكونان في الحرب، والشاعر يتحدّث عن مقتل والِده الذي طُعِن غَدْراً وهو شيخ طاعن في السن انهارت قواهُ وخرّت عزائمه، وهذا ما أجَّج نيران الثأر والانتقام في نفسه، فكانت النتيجة أن جعل دماءهم تتناثر في كل مكان، وكان بمثابة سم يتطاير في وجه أعدائه.

وفي قولِه: (17)

قَتَلْنَا بعمروٍ مِنْهُم خَيْرَ فَارِسٍ *** يَزِيداً وسَعْداً وابْنَ عَوْفٍ بمالكِ

جاء الفعل قتل ليحيل على دالة الثأر، وعلى أحد نتائج الحرب التي تُخَلف قتلى وموتى، والشاعر يتحدث عن بعض قتلاه الذين شفى الغليل منهم، فكانوا بمنزلة العزاء له على ما كابده وعانى منه من مشقة وتعب في حياته.

وفي توظيفه لكلمة قتلنا إشارة إلى الغاية التي يطمح إلى تحقيقها هو ورفاقه من تصعلكهم، فالقتل وبث الحسرة في نفوس أعدائه هي جل ما يبتغيه، وقد دلّت نون الجماعة -في قتلنا- على المشاركة في الفعل، هذه المشاركة لا تتطلب اجتماع الصعاليك

مع بعضهم البعض في ساحة المعركة، فقد يغني الفرد عن الجماعة فيقتل عدوه ويشفي صدور أصحابه.

وفي قوله: (18)

فإن تبْتئِس بالشنفرى **أُمُّ قَسْطَل** *** لما اغتَبَطت بالشّنفرى قبل أطول

قصد الشاعر بأم قسطل الحرب، والقسطل في اللغة هو الغبار الساطع في الحرب، وقد حملت الكلمة صورة مشهدية تمثلت في احتدام الصراع بين المقاتلين في ساحة القتال، إذ إن الغبار لا يملأ المكان إلا إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس، وهذا دليل على الندية في المواجهة والقتال بكل بأس وشدة، مما يعني أن الشنفرى كان شجاعا قويا لا يهاب الموت، وفي المعركة لا يدخر أي جهد ، ومعنى البيت: أنّ الحرب إذا حزنت لفراق الشنفرى الذي كان يُثيرها ويُضْرِمُ نيرانها فطالما سُرَّتْ به، أي إنه شفى غليله وأخذ ثأره، فحياته مرتبطة بالحرب فقط ولا أمل له في تصور حياته بعيدا عنها، وعلى هذا الأساس كان هدفه واضحا الانتقام من قومه وقتل أكبر عدد منهم إلى أن تتوفاه المنية في ساحات القتال.

وفي قوله: (19)

طَريد جِنايات تياسَرْنَ لحْمهُ *** عقيرَتُهُ لأَيّها حُمَّ أَوَّلُ

جاءت لفظة طريد لتدل على حال الشاعر المطارد من قومه الذين يسعون جاهدين للإمساك به والاقتصاص منه، ودلّت لفظة الجنايات على كثرة غاراته على قومه، والمعنى أنّه مُطارد من قبل الذين أغار عليهم، وهم يتنافسون للقبض عليه والانتقام منه.

لقد أحال الشنفرى ليل قومه إلى نهار وفرحهم إلى حزن وأمانهم إلى خوف ورعب، فما كان منهم إلا السعي إلى إعادة الهدوء والاستقرار إلى حمى القبيلة وذلك لا يكون إلا بقتل الشنفرى فأصبح مطاردا ومرصودا والجميع يتنافس للوصول إليه، والشاعر يقر بكثرة جرائره على قومه فجاءت كلمة جنايات بصيغة الجمع للدلالة على الكثرة والتنوع، وبما أنه لا أمل لديه في العيش مع بني قومه مجددا فقد قرر المضي قُدمًا والمواجهة حتى الرمق الأخير دون هوادة أو استسلام.

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

السلاح في شعر الشنفرى:

اهتم العربي بالأسلحة والمعدات الحربية اهتماما كبيرًا، وبذل كل ما يستطيع للحصول على أكبر كمية من خيرها وأجودها، وبعدد الحرب كانت له الجرأة على خوض غمار الحرب، وبها كان يخيف موعديه ويصدُّ من يبغي ضيمه «وقد بلغ من اعتزاز العربي بمعدات الحرب وعظم تقديره لها أن كان لو ملكها وحدها دون أن يكون في حيازته أي مال آخر لعدّ نفسه غنيا، ولو مات عنها لكان في توريثها ورثته من بعد خير غناء»[20] فبها كانوا يحافظون على حياتهم ويصونون شرفهم ويرضون رغبتهم ويدافعون عن عزتهم، ويحققون أمانيهم.

والسلاح هو ما ميّز العرب عمّن سواهم من الأمم، يقول الثعالبي «اختصت العرب من بين الأمم بأربَعٍ: العمائمُ تيجانها، والحُبَى [ما يُحتبى به من ثوب وغيره، والاحتباء جمع الظهر والساقين بعمامة ونحوها] حيطانها، والسيوف سيجانها[الساج ثوب أخضر واسع مدوّر يضعه المشايخ والعلماء] والشعر ديوانها»[21] ولعلّ كثرة التسميات التي حظي بها السيف دليل على فروسية العرب مما جعلهم مجيدين في وصف المعارك والحروب.

وكانت الأسلحة التي استخدمها الشنفرى في حربه ضد قومه، وذكرها في أشعاره هي السيف والقوس، وكان وصفه لهما دقيقا وبالغا، وكثيرا ما تغنى بذكرهما

السيف:

تحدّث الشعراء الجاهليون في شعرهم الحربي عن السيف من عدة نواح، هي «مادته، وصفاته المحبوبة، وعناية صاحبه به، وحدته، وأسماؤه، ثم الصور التي رسموها له» [22]

أما مادته، فخيرها ما كان مصنوعا من الحديد الخالص، وأخلصته الصياقل حتى صار نقيا وخاليا من العيوب، وأحبوا من السيوف ما كان صقيلا أبيضا يتلألأ حدُّه، وتبرق صفحته[23] وقد ذكره الشنفرى بهذه الصفات في قوله: [24]

إذا فَزِعُوا طارت بأبيضَ صارمٍ *** ورَامَتْ بما في جَفْرِها ثمَّ سلَّتِ

هذا البيت يتحدّث فيه الشاعر عن سيف "تأبط شرا" الذي كنى عنه بالبياض ووصفه بأنه صارم، وفي ذكره لسيف تأبط شرا إشارة إلى الأمان الذي يشعر به الشاعر ورفاقه ككل في وجود تأبط شرا باعتباره المتكفل بتسيير شؤون الصعاليك وتدبير أمورهم،

فالسيف وإن كان لتأبط شرا إلا أنه يدل على أسياف الصعاليك ككل، فسيف الفرد في خدمة الجماعة وأسياف الجماعة في خدمة الفرد.

وقوله: (25)

وأبيضُ من ماء الحديد مُهنّد *** مُجِذٌّ لأطْرافِ السَّوَاعِدِ مِقْطَفُ

وقوله: (26)

ثلاثةُ أصحابٍ: فؤادٌ مُشَيّعٌ *** وأبْيَضُ إِصْلِيتٌ وصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

حرص الشاعر في هذه الأبيات على ذكر بياض سيفه، وفي هذا إشارة إلى صفائه ونقائه وأنه مصنوع من سلاف الحديد وهو أجوده، وهذا ما يدلّ على أن سيفه ذو نوعية جيدة ولا يحتاج إلا لمقاتل قوي حتى يؤدي دوره الذي صنع من أجله، كما أنه مُجِذ أي يقطع كل ما يهوي عليه.

وعن حدة السيف ومضائه فقد أكثر الشعراء من الحديث عن هذه الناحية، لأنها أهم ما في السيف، فعبروا عنها بتعابير كثيرة، مختلفة في اللفظ متحدة في المعنى، فقالوا عنه: حسام، مرهف، صارم، باتر، جراز، ... وخصصوا بعض الصفات لحالات معينة كإصليت إذا كان ماضيا نافذا، ومصمم إذا كان يمر في العظام (27) وكل هذه الصفات وأخرى ذكرها الشاعر لسيفه أو لأسياف أصحابه، فقال يصف صلاح تأبط شرّا: (28)

فشنّ عليهم هزّة السيف ثابت *** وصمَّمَ فيهم بالحُسَامِ المُسَيّبُ

إنّ الشنفرى وهو يصف سلاح "تأبط شرا" إنما هو في الحقيقة يصف سلاحًا هو بمثابة سلاحه الشخصي، لأنّ "تأبط شرا" تربطه به عدة روابط، منها رابطة الدم فهو خاله، ورابطة الصحبة إذ هو قرينه في الصعلكة وتوأمه في وحدة المصير، إذ إنّ الدفاع عن الجماعة (الصعاليك) دفاع عن النفس، وبقاء الجماعة ضمان لبقاء الفرد، وهلاكها تهديد حقيقي للفرد والجماعة ككل.

وفي قوله: (29)

حسامٌ كلونِ الملح صافٍ حديدُهُ *** جُرَازٍ كأَقْطَاعِ الغَدِيرِ المُنَعَّتِ

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

في هذا البيت وصف دقيق ورائع لسيفه، حيث يقول بأنه حسامه شديد البياض كبياض الملح أي أنه صنع من حديد خالص وصاف، وهو جراز أي قاطع، وله بريق ولمعان كبريق الغدير، وفي هذا دلالة على أن سيفه من أجود السيوف على إطلاقها.

وها هو يركز على حدة سيفه وسيوف أصحابه فيقول: (30)

بأنّا صَبَحْنَا العَوْصَ في حُرِّ دَارِهِم *** حِمَامَ المنايا بالسّيُوفِ البواتكِ

ظللْنا نُفَرِّي بالسُّيوف رؤوسَهُمْ *** ونَرْشُقهم بالنَّبْلِ بيْنَ الدّكادِكِ

أي أنه وأصحابه هجموا على حي العوص (اسم لحي) في عقر دارهم، فقاتلوهم وقتلوهم وكانت سيوفهم قاطعة وحادة، تشق الرؤوس بكل سهولة ويسر، ولأنها أدت دورها كما يجب ذكرها الشاعر كنوع من الافتخار بسلاحهم الذي كان نعم المعين لهم.

وقد سمى الشاعر سيفه بالمهند أي أنه مصنوع في الهند، وباليماني أي الذي صنع في اليمن، وهذا دليل على امتلاكه لأجود السيوف خاصة وأن هذين الاسمين يكثر توظيفهما من قبل الشعراء (31) يقول: (32)

وأبيضُ من ماء الحديد مُهنّد *** مُجِذٌّ لأطْرافِ السَّوَاعِدِ مِقْطَفُ

وقوله: (33)

وردتُ بمَأْثُورٍ يَمَانٍ وضالَّةٍ *** تَخَيَّرْتُهَا ممّا أُريشُ وأَرْصِفُ

في هذه الأبيات تكررت كلمة السيف باللفظ ثلاث مرّات، وبالصفات إحدى عشرة مرّة، وقد ركّز الشاعر على أهم صفة تُمَيِّزُ سيفَه وهي كونه قاطعا، مُجِذًّا، جُرازا وهذا ما يمنحه الثقة اللازمة لدخول أي معركة، فسيفه من أجود السيوف وأفضلها.

وفي ذكر الشاعر لصفات سيفه: حسام، مهند، أبيض،... هذا التنوع في ذكر صفات السيف دليل على فروسية الشاعر وإجادته القتال به، فهو لا يخشى اللقاءات المباشرة، ويبلي البلاء الحسن سواء بالسيف أم بغيره، وهذه الصفات إن اجتمعت في شخص فهي دليل على حذقه وتمرسه على فنون القتال.

إنّ توظيف الشاعر للون الأبيض كإشارة للسيف يحمل بعدين؛ الأول يتمثل في نوعية السيف أي أنه من أجود السيوف ومصنوع من الحديد الخالص، أما الثاني ففيه

إشارة إلى كثرة استعماله، فلو يبقى السيف في الغمد لفترة طويلة فهذا يؤدي إلى تلفه وصدأه مما يجعله لا يؤدي الوظيفة التي صنع لأجلها.

ومن دلالات اللون الأبيض الصفاء والنقاء، وكذلك سيف الشنفرى فهو نقي وخال من دماء الضعفاء والأبرياء، ولا ينال إلا من الذين يستحقون ضرب الرقاب، وبما جنت أيديهم. وفي تشبيهه بلون الملح الذي تستعمله العرب في إصلاح ما يخشى فساده من الأطعمة واللحوم فكأنه يصف سيفه بالدواء لأولئك الذين قتلوا والده وتسببوا في عيشه لحياة التصعلك.

القوس:

من الأدوات الأخرى التي استعملها الشاعر لتكون عدّته في الحرب: القوس، التي كانت سلاحه الرئيس، لإجادته الرمي بها فكان سهمه لا يخطئ الهدف، هذا من جهة ومن جهة أخرى طبيعة المواجهة بينه وبين قومه فرضت عليه أن يكثر من الاعتماد عليها، لأنه فرد يواجه قوما بأكملهم، ومن المستحيل مواجهتهم بشكل مباشر فما كان منه إلا المباغتة بالقوس وتجنب اللقاء المباشر الذي يجعله في متناولهم، وقد أتاحت له قتل أكبر عدد من أعدائه بأخف الأضرار.

وقد ذكر الشاعر القوس بالاسم مرتين؛ الأولى جاءت علي صيغة الجمع في قوله: (34)

وباضعةٍ حُمْرِ القِسِيِّ بعثْتُهَا *** ومنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مرّةً ويُشَمَّتِ

في هذا البيت ذكر الشاعر القوس بالاسم بصيغة الجمع، وأشار إلى لونها الأحمر الذي اكتسبته بعد أن غيرت الأنداء والظروف الطبيعية لونها الأصفر.

والثانية في قوله: (35)

وليْلَةِ نَحْسٍ يَصْطَلِي القَوْسَ رَبُّهَا *** وأَقْطُعَهُ التي بها يتَنبّلُ

تحدّث الشاعر في هذا البيت عن ليلة شديدة البرودة، جازف فيها بفقد أهم ما يملكه للدفاع عن نفسه في سبيل أن يسْتدفئ، وقد صوّرت كلماته حجم المعاناة التي يعيشها، فكل الظروف ضده ومع هذا لم يستسلم ومضى كلّه حزم وعزم لتنفيذ ما عقد عليه النية.

أمّا باقي الأبيات فكنّى عنها بلفظة: حمراء، أحمر، صفراء، وهي كلّها صفات للقوس المصنوع من شجر النبع، الذي «ينبت في قمم الجبال، ولم يشرب من ماء الأنهار، وليس

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

شجرا خوار»[36] وفي هذا إشارة إلى مكان تواجده، في أعالي الجبال، أما لونها فقد أكثر الشعراء من ترديد اصفرارها، وإن كان يوصف ليطها (الليط: القشر الأعلى) بالاحمرار، وأهم صفاتها المحمودة أنها هتوف أي مصوتة[37] كما جاء بكلمة عجسها لدلالة الجزء على الكل والعجس هو مقبض القوس، واستخدم ضمير الغائب ليعود عليها، وهذا نظير ما نجده في قوله: [38]

وحمْراءُ من نبْعٍ أبيٍّ ظَهِيرَةٌ *** ترِنُّ كإرْنَان الشّجِيّ وتهتفُ

إذا آل فيها النَّزْعُ تَأْبَى بِعَجْسِهَا *** وتَرْمِي بذرْوَيْها بهنّ وتقْذِفُ

كأنّ حفيف النَّبْل من فَوْقِ *** عَوَازِبُ نَحْلٍ أَخْطَأَ الغَارَ مُطْنِفُ

في هذه الأبيات يتحدّث الشاعر عن قوسه التي غيّرت الشمس لونها فاستحالت حمراء بعدما كان لونها أصفر، وهي مصنوعة من شجر النبع الذي يصنع منه القِسيُّ والسهام، ووصف صوتها بأنه شبيه بالصياح والبكاء، وفي البيت الثاني تحدّثَ عن السهم (النّزعُ) الذي لا يحقق فائدته دون وجود القوس، فكلاهما مرتبط بالآخر، كما تحدّث عن مقبض القوس (عجسها) وطرفيْها (ذرْوَيْهَا) ليصل إلى القول بأنه لا يخطئ الرمي بقوسه، ويشبه في البيت الأخير صوت النبل وهو يشق الهواء بصوت النحل وهو مجتمع للبحث عن خليته بعد أن أخطأها، فشبه حفيفها بحفيف ريح شديدة تحطم كل ما مرّت به.

إنّ شجاعة الشاعر وإقدامه جعلته لا يهاب الموت، وحفيف النبل صوت مستعذب في فؤاده على خلاف غيره من الناس، فصوت النبال يطير بصوابهم ويفزع أفئدتهم، بل إن الشاعر قد ساق تشبيها لهذا الصوت ينم عن اطمئنان ورباطة جأش حين القتال فصوت النبال المنهالة عنده كصوت النحل بما توحي به هذه الكلمة من لذة العسل واستطابته، فتخير الشاعر لصوت النحل ليس عبثا، بل اختيارًا يوحي بمدى تلذذ الشاعر بهذه المواقف التي يتجنبها غيره.

وفي قوله: [39]

أُرَكِّبُهَا في كُلِّ أحْمَرَ غاثرٍ *** وأنْسِجُ للوِلْدَانِ ما هو مُقْرِفُ

وتابَعتُ فيهِ البَرْيَ حتَّى تَرَكْتُهُ *** يُرِنُّ إذا أنْقَذْتُهُ ويُزَفْزِفُ

إنّ إطلاق السهم من القوس يُحدث صوتا شبهه الشاعر بالرنين، والإرنان صوت الثكلى وآهاتها التي تطلقها موجوعة متحسرة، وهذا الصوت يحمل بعدين دلالين؛ فالإرنان الذي تصدره القوس حال فراق السهم يوحي بنهاية مشؤومة للمرمي، وكأن القوس تنوح على مصيره، كما أنها تنفس عن حزن الشاعر الذي أبى أن يتأوه حزنا على أحبابه بل آثر أن تكون القوس متوجعة بدلا منه، معبرة عن أحاسيسه مفضية بآلامه.

إنّ الشاعر وهو يتغنى بقوسه الأحمر اللون، إنما يثير في أذهاننا عدّة دلالات للون الأحمر، فالشاعر يتخير ألفاظه بعناية ويوردها بطريقة وظيفية تنم عن تمكن في اللغة وصواب في تخير الألفاظ التي يبني بها قصائده، فالأحمر لون الدم، والقوس آلة حرب والحمرة تناسبها تماما فإذا زلّ السهم عنها أراق دم الخصم، كما أنّ وصفها بالحمرة يوحي بتخضبها بدماء ضحاياه، بالإضافة إلى ما يحيل إليه اللون الأحمر في مألوف الناس من إيحاء بالخطر ودلالة على عظيم البلاء وشدة البأس، فلون القوس الأحمر يحمل كل دلالات الموت والثأر والشدة، وأهوال عِظام ترافق هذه القوس.

ويواصل الشاعر وصف قوسه قائلا: (40)

ثلاثةُ أصْحابٍ: فُؤادٌ مُشَيَّعُ *** وأبْيَضُ إصْليت وصفْراءُ عَيْطَلُ

هتوفٌ من المُلسِ المُتُون تَزِينُهَا *** رَصَائِعُ قَدْ نِيطَتْ إلَيْهَا ومِحْمَلُ

إذا زلَّ عَنْهَا السهْمُ حَنَّتْ كأنَّهَا *** مُرَزّأَةٌ عَجْلَى تُرِنُّ وَتُعْوِلُ

إنّ إعجاب الشاعر بقوسه الطويل وافتتانه به وبصوته الذي يُصدر رنيناً عند انطلاقِ السهم، جعله يتفنن في وصف قوسه المرصعة ببعض الحُلي والتي تُحدث صوتاً حزينا شبيها بصوت الثكلى التي فقدت ولدها، وكأنه يستحضر مشهد الصراخ والعويل على الذين قتلهم قبل أن يُبكى عليهم من خلال الصوت الذي يترنم به كلما أطلقه.

والشاعر كنّى عن قوسه بلفظة صفراء، وهو لون يعرف معانيه أهل الصحراء، ويُورد عادة للدلالة على الاتساع الذي تمتاز به الصحراء، فهي باب مهالك لمن لم يعرف دروبها ويَخْبَر مسالكها، كما أنها توحي بالجفاف وذهاب خضرة الأرض وخلع زينتها وحلتها الخضراء فتغدو الحياة فيها شبه مستحيلة، فهلاك النبات واصفراره بداية هلاك لباقي الكائنات التي تعتمد عليه لضمان بقائها، ومن أقرب المعاني التي ترد على خاطر الإنسان لون العقرب الذي يعيش في الصحاري متخفيا بزيها الأصفر المشابه للون الرمال، فيهاجم فرائسه بسم زعاف

ISSN: 2352-9830, EISSN: 2600-6898

قلما ينجو منه من أصابه، وكذلك قوس الشنفرى فهي مهلكة مميتة كصحراء العرب وعقاربها.

ولتكون القوس ذات فاعلية لابد لها من سهام أو نبال تنبعث منها، وقد ذكرهم الشاعر عندما وصف سلاح خاله ورفيقه في التصعلك "تأبط شرا" والذي يعتبره نعم العون والنصير، وسهامه هي في الحقيقة سهام الشنفرى طالما أن الهدف والمصير واحد، يقول:(41)

لها وَفْضةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفًا *** إذا آنَسَتْ أُولَى العَدِيِّ اقْشَعَرَّتِ

تحدّث في هذا البيت عن قوس تأبط شرا، وجُعبَتِها التي تحمل ثلاثين سهماً عريضًا نِصالُه، وهو دائم الاستعداد والتأهب للرمي بها كلما شعر باقتراب من يطلبه، فإن كانت عينه تنام فقلبه لا ينام، نظرا لأنه حمل على عاتقه مسؤولية تدبير شؤون الصعاليك، فهو القائد الروحي للجماعة، وهذا ما يستلزم حرصا شديدا وحذرا أشد.

وفي قوله يصف قوسه: (42)

ومُسْتَبْسِلٍ ضَافِي القَمِيصِ ضَمَمْتُهُ *** بأزْرَقَ لا نِكْسٍ ولا مُتَعَوِّجِ

عَلَيْهِ نُسَارِيٌّ على خُوطِ نَبْعَةٍ *** وفُوقٍ كعُرْقُوبِ القَطَاةِ مُدَحْرَجُ

نفى أن يكون سهمه –الذي كنى عنه بالأزرق- منكسر الرأس أو متعوجا، وهو مصنوع من شجر النبع اللين (خوط نبعة) وما يميز سهامه أنّ عليها ريش النسر ليسهل على قومه معرفة المغير أو القاتل، حيث كانوا يعرفون قتلاه من خلال سهامه، ثم يواصل وصف وتر قوسه (فوق) بأنها شبيهة بعرقوب طائر القطاة.

والأزرق عند العرب هو السهم، ويرتبط هذا اللون بالأذى، ويقال ازرقت عيناه فهذا دليل على الاحتضار وقرب الموت، فكذلك الشنفرى يحمل الموت لأعدائه عبر سهامه.

خاتمة

في ختام هذه الدراسة تبين لنا أنّ الحرب كانت مدار حياة الشاعر ومجال حديثه وسمره، ومصدرا من مصادر إلهامه الشعري، فأثارت في نفسه أحاسيس مختلفة، وعواطف متباينة، ثم انسابت على لسانه فيضا غزيرًا ملأ مساحة واسعة في شعره.

وفي استخدامه للسيف تارة وللقوس ولوازمها تارة أخرى، سواءً باللفظ أم الكناية وحتّى بالضمير-كما رأينا سابقاً- دليل على تَمرُّس الشاعر وحِذْقِهِ لفنون القتال، ففي حالة المواجهة المباشرة يستخدم السيف وهذا ما يدل على أنه فارسٌ مقدام، أمّا في حالة

الترصُدِ والمباغتة فيستخدم القوس للعودة بأقل الأضرار وأكثر الآثار، وهذا ما ينمّ على أنّ شاعرنا يتميز بحسن التدبير وعمق التفكير في تسيير شؤون الحرب والمعارك، وفي تنوعيه للقتل بالسيف تارة وبالقوس أخرى بثٌّ للحسرة والألم في نفوس قومه الذين ضيّعوه ولم يُقدِّروه حق قدره بل وأسرفوا في ظلمه دون وجه حق، فكانت الحرب عنوان حياته ورد فعل لجور قومه وطغيانهم، وهذا ما انعكس على معجمه فجاء مليئا بألفاظ الحرب ومتعلقاتها.

الهوامش:

---

(1) علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي، القاهرة، (د. ط)(د. ت)، ص: 17

(2) عبد الحليم حنفي، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر، 1987، ص:75

(3) المرجع نفسه، ص:75، 76

(4) ديوان الشنفرى، جمع وتحقيق وشرح: إميل بديع يعقوب، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1996، ص:61.

(5) الديوان، ص:71.

(6) الديوان، ص:69، 70.

(7) حرشاوي جمال، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك (الشنفرى أنموذجاً) أطروحة دكتواره، جامعة أحمد بن بلة وهران، الجزائر، 2016/2015، ص:100.

(8) ميساء صلاح وادي السلامي، لغة الشعر في المفضليات، أطروحة لدكتوراه، جامعة الكوفة، العراق، 2006، ص: 18

(9) علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار عيسى البابي الحلبي، 1966، ص: 24

(10) الديوان، ص: 28

(11) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(12) الديوان، ص: 34

(13) الديوان، ص: 37

(14) الديوان، ص: 40

(15) الديوان، ص: 44

(16) الديوان، ص: 45

(17) الديوان، ص: 57

(18) الديوان، ص: 59

(19) الديوان، ص: 68

(20) علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، (م، س) ، ص: 132

(21) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ج1، ط1، تح وشر: إبراهيم صالح، دار البشائر للنشر، دمشق، 1994، ص: 275.

(22) علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، (م، س)، ص: 149

(23) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(24) الديوان، ص: 36

(25) الديوان، ص: 53

(26) الديوان، ص: 60

(27) علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، (م، س)، ص: 150

(28) الديوان، ص: 28

(29) الديوان، ص: 36

(30) الديوان، ص: 57

(31) علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، (م، س)، ص: 151

(32) الديوان، ص: 53

(33) الديوان، ص: 54

(34) الديوان، ص: 34

(35) الديوان، ص: 69

(36) علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، (م، س)، ص: 137

(37) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(38) الديوان، ص: 54

(39) الديوان، ص: 55

(40) الديوان، ص:60

(41) الديوان، ص: 36

(42) الديوان، ص: 40

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊